توقفوا عن إطلاق النار

الإرهاب الهمجي لحماس على إسرائيل وإرادتها البينة لإبادة كل حياة يهودية قد أدت في ألمانيا إلى موجة من التضامن مع ضحايا هذا الهجوم، والسكان الإسرائيليين، وكذلك مع اليهود الذين يعيشون هنا.

وهذا لا يتغير حتى مع معاداة السامية والكراهية البينة لإسرائيل الموجودة في ألمانيا، سواء كانت نابعة من الداخل أو نتيجة لمجتمع المهاجرين العرب الذين تربوا على معاداة السامية كما لو كانت جزءًا من حليب الأم. وعلى الرغم من أن الكثير مما حدث في شوارع ألمانيا في الأسابيع الماضية كان غير مقبول وغالبًا ما يكون مخالفًا للقانون، إلا أنه لم يكن أبدًا أهلا لزعزعة تضامن الأغلبية الساحقة من المجتمع الألماني مع إسرائيل. وقد عبر نائب المستشار الألماني روبرت هابيك عن ذلك بوضوح مؤثر في خطابه في الأول من نوفمبر..

ومع ذلك، خاصة في ألمانيا هناك فجوة في الحوار السياسي العام وأيضًا في بعض الوسائل الإعلامية الرئيسية مع هذا الصراع المتجدد في الشرق الأوسط. وتتعلق هذه الفجوة بالوضع المأساوي للسكان المدنيين في قطاع غزة وكذلك في الضفة الغربية، أي المنطقة بين وادي الأردن وحدود الدولة الإسرائيلية، حيث يفترض أن تكون هيئة

الحكم الذاتي الفلسطينية تتحكم إلى حد كبير في مصير الفلسطينيين الذين يعيشون هناك، ولكن في الواقع، هذا الحكم الذاتي يوجد إلى حد كبير على الورق فقط.

نحن نرى صور الدمار الهائل في قطاع غزة، والناس الذين يحاولون استخراج أقاربهم من تحت الأنقاض، ونسمع عن الرضع الذين يموتون بسبب نقص الكهرباء في حاضنات المستشفيات، ونشاهد الأعداد المتزايدة من القتلى التي تجاوزت بكثير عدد الضحايا الإسرائيليين الذين قُتلوا بسبب إرهاب حماس.

© dpa

الحقيقة هي: على عكس حماس، يقوم الجيش الإسرائيلي بالكثير لتجنب الضحايا المدنيين. ولكن في واحدة من أكثر التجمعات السكنية كثافة في العالم ذات العمارات العالية، لا يمكن تنفيذ عملية عسكرية ضخمة دون تعريض الأبرياء للخطر. إلى أين يمكن لـ 1.2 مليون شخص الهروب، وهم الذين طُلب منهم عبر المنشورات مغادرة مناطقهم السكنية في غضون 24 ساعة ؟

لا أعرف أحدًا لم تؤثر فيه هذه الصور. التعاطف والعجز يتناوبان أمام هذه العواقب المروعة للهجوم الإرهابي لحماس في 7 أكتوبر 2023. وأعترف شخصيًا: يحطم قلبي عندما أرى الأطفال يموتون – سواء كانوا يهودًا أو فلسطينيين. ولا أحد يشعر مثلما أشعر أنا سيقوم بالاستهانة" من إرهاب حماس أو المساواة بين إسرائيل وحماس. يمكن للمرء أن يكره إرهاب حماس ومع ذلك يشعر بالتعاطف مع أطفال وعائلات قطاع غزة.

ومع ذلك، نحن الألمان نتحدث عن ذلك بتحفظ. الأسباب ليست صعبة التحديد: على الأقل أصحاب المسئوليات السياسية والإعلامية والاقتصادية يريدون إظهار أن ما قالته المستشارة الألمانية آنذاك أنجيلا ميركل في 18 مارس 2008 خلال الاحتفال بالذكرى الستين لتأسيس دولة إسرائيل في البرلمان الإسرائيلي، أن أمن إسرائيل يعتبر جزءًا من مفاهيم الدولة الألمانية، كان مقصودًا بجدية ويجب أن يثبت نفسه في هذا الوضع الخطير لإسرائيل."

"والذي ينتمي إلى الأمة التي حاولت في القرن العشرين إبادة الحياة اليهودية في جميع أنحاء العالم، يتحتم عليه في القرن الحادي والعشرين دعم الدولة الوحيدة التي يجب أن يعيش فيها بأمان أحفاد الذين نجوا من هذه الرغبة في الإبادة.

لذلك، نحن الألمان ندافع بشكل خاص وبحق عن حق إسرائيل في الدفاع عن النفس، ويجب علينا – إذا طلبت منا دولة إسرائيل ذلك – أن نوفر الوسائل المناسبة لذلك.

لكن هل يجب أن يؤدي هذا الالتزام الواضح إلى تصلب موقفنا تجاه معاناة الفلسطينيين في نظر العالم العربي والإسلامي؟ هل يكفي القول بأن حماس مسؤولة أيضًا عن هذه الضحايا المدنيين في قطاع غزة، لأن قيادتها تختبئ جبانة خلف وتحت المؤسسات المدنية مثل المستشفيات؟ وهل تظل هذا الحجة صالحة على المدى الطويل بأن تدمير حماس يجب أن يكون هدفًا وجوديًا لإسرائيل بحيث يبرر الآلاف من الضحايا المدنيين؟ هل تجبرنا قسوة الواقع في الشرق الأوسط على قبول هذا العنف كأمر لا مفر منه؟

تظهر سياسة الولايات المتحدة ورئيسها جو بايدن أن كلا الأمرين ممكن: التموضع بوضوح لحماية إسرائيل وفي الوقت نفسه التعبير بوضوح عن معاناة الفلسطينيين في الحاضر والماضي. نحن الأوروبيون ونحن الألمان أيضا سيكون من الجيد دعمه في ذلك. فبقدر ما يكون تدمير حماس وحلفائها الجهاديين مرغوبًا فيه، فإن القليل يشير إلى أن الحرب المستمرة في قطاع غزة مع المزيد من المعاناة والمزيد من سفك الدماء يمكن أن يؤدي في النهاية إلى شيء جديد وأفضل - للإسرائيليين والفلسطينيين."

Benjamin Netanjahu and Joe Biden © dpa

"الذي يريد هزيمة حماس، يحتاج إلى جانب الأسلحة والجيش، إلى الاستعداد بشكل أساسي لسحب البساط من تحت أيديولوجيتها المعادية للإنسانية. كان هذا الاستعداد موجودًا في وقت ما، عندما وُعد الفلسطينيون بدولة ديمقراطية خاصة بهم بجانب إسرائيل. الحل الذي يسمى بـ "حل الدولتين". ولكن الحقيقة المرة هي أننا جميعًا - الاتحاد الأوروبي، المجتمع الدولي، الدول العربية المجاورة لإسرائيل، الحكومة الإسرائيلية وحركتها الاستيطانية وحتى القيادة الفلسطينية المنقسمة - تركنا هذا

الحل يتحول إلى مجرد شعارات. كانت الفكرة تقوم على التعايش السلمي بين دولة ديمقراطية يهودية ودولة ديمقراطية فلسطينية جنبًا إلى جنب.

لم يعمل أحد بجدية على هذا الحل خلال العقدين الماضيين، بل على العكس: بدا أنه من الممكن التوصل إلى تطبيع بين إسرائيل والدول العربية المجاورة لها دون الحاجة إلى إعطاء الفلسطينيين حق تقرير المصير

ذهبت الحكومة الإسرائيلية تحت قيادة بنيامين نتنياهو إلى حد الاعتقاد بأنها يمكن أن تدعم حماس دون تعريض إسرائيل للخطر الحقيقي، بهدف إضعاف السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية. وبالفعل قال نتنياهو: "كل من يريد منع إقامة دولة فلسطينية يجب أن يدعم تقوية حماس (...) هذا جزء من استراتيجيتنا لفصل الفلسطينيين في غزة عن الفلسطينيين في يهودا والسامرة". لذا لم يتدفق دولار قطري واحد إلى حماس دون موافقة الحكومة الإسرائيلية. لأن الهدف الفعلي لحكومات نتنياهو كان الضم الكامل للضفة الغربية إلى أراضي الدولة الإسرائيلية. وهذا ما أظهره أيضًا على خريطة إسرائيل التي قدمها في الجمعية العامة للأمم المتحدة قبل بضعة أسابيع، حيث لم تعد الضفة الغربية موجودة. انتهى هذا الوهم بالسياسة القائمة على "فرق تسد" مع الهجوم الإرهابي لحماس

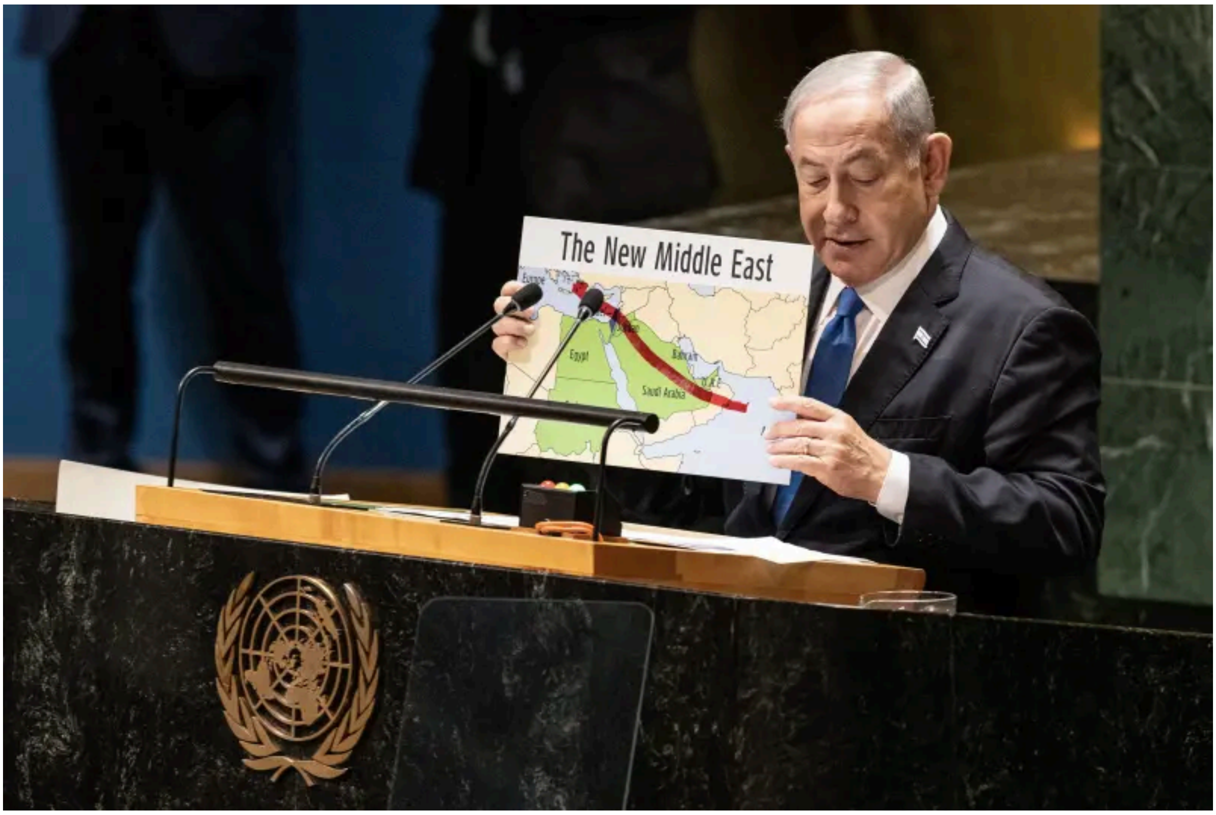

© imago images

لقد مكن هذا الفشل الدولي المشترك حماس ومتعصبيها الإسلاميين من تنصيب أنفسهم كممثلين للقضية الفلسطينية، على الرغم من أنهم لم يكونوا كذلك في الماضي ولا حتى اليوم. فهم لا يناضلون من أجل دولة فلسطينية ديمقراطية، بل يسعون للقضاء على الحياة اليهودية وإقامة "خلافة" لا تعدو كونها نظام عنف من العصور الوسطى، حيث يهدد الحكم بالموت كل تعبير حر عن الرأي، وكل معارضة، وكل امرأة، وكل مطالبة بحياة ذاتية . ولأنه لم يكن هناك من يمثل القضية الفلسطينية بجدية، وكانت القيادة الفلسطينية العلمانية عاجزة إلى حد كبير أمام هذا الوضع ومهددة بالغرق في الفساد والمحسوبية، استطاعت حماس أن تملأ هذه الفجوة، رغم أنها لا تضع في الحسبان إقامة دولة فلسطينية ديمقراطية.

وبملء السخرية والتهكم، أشار ممثلو حماس في الأيام الأخيرة إلى أن القضية الفلسطينية عادت إلى جدول الأعمال الدولي بفضل هجمتهم الإرهابية.

والإعلان عن هذا بصوت عالٍ في ألمانيا ليس قلبًا للأدوار بين الجاني والضحية ولا تقليلاً من إرهاب حماس. إنها التأطير الضروري لفهم السبب في أنه حتى مع هزيمة حماس عسكريًا، لا يزال الظل الطويل للماضي قائمًا ومعه إمكانية العنف في الشرق الأوسط.

لقد بنت ألمانيا في الماضي ثقة كبيرًة في منطقة الشرق الأوسط. يعرف الجميع هناك موقفنا تجاه إسرائيل. ومع ذلك، كنا نعتبر وسطاء عادلين للمصالح الفلسطينية أيضًا. لا يجب أن نهدر هذا الثقة في وقت قصير، لأننا نعطي انطباعًا بالعجز عن الكلام تجاه الفلسطينيين والعالم العربي على الرغم من العدد المتزايد من الضحايا المدنيين في قطاع غزة."

"أن تصوت الدولتان الأوروبيتان الرائدتان، فرنسا وألمانيا، بشكل مختلف على قرار بشأن النزاع في الشرق الأوسط في الجمعية العامة للأمم المتحدة، يُعتبر في باقي

العالم علامة على المزيد من التحجيم الإقليمي لأوروبا. نادرًا ما كانت الفجوة واضحة إلى هذا الحد بين طموح أوروبا لتكون 'عامل قوة جيوسياسي' والواقع .

في ظل الانقسام الذي يعاني منه الاتحاد الأوروبي في نظرته الخارجية والجيوسياسية تجاه إسرائيل والفلسطينيين والعالم العربي، يمكننا أن نكون ممتنين لوجود الولايات المتحدة، التي على الرغم من تحالفها الوثيق مع إسرائيل، تدرك الأخطار التي تكمن في استمرار العنف العسكري في قطاع غزة. لم يكن هناك زعيم دولة أو حكومة أوروبي، بل كان الرئيس الأمريكي جو بايدن، الذي أبدى استعدادًا لاستخدام القوات العسكرية الأمريكية للدفاع عن إسرائيل ضد هجمات محتملة من إيران أو وكلائها في لبنان وسوريا، وكان على استعداد للدفاع عن أمن إسرائيل ليس بالكلمات فحسب، بل بالأفعال أيضًا.

© imago

في حالة حدوث أمر جدي، سيكون هذا مختلفًا تمامًا عن دعم أوكرانيا، حيث تقدم الولايات المتحدة الأسلحة والتدريب والمعلومات، لكنها تتجنب كل ما قد يجعلها طرفًا

في الحرب ضد روسيا. ولكن في الشرق الأوسط، ستكون الأمور مختلفة: فالولايات المتحدة ستتدخل عسكريًا ضد أعداء إسرائيل. ستكون هناك حرب كبيرة على أبواب أوروبا، تفوق مخاطرها تلك المتعلقة بالنزاع في أوكرانيا.

وربما لهذا السبب كان الرئيس الأمريكي أول زعيم غربي يحذر إسرائيل من تحمل العديد من الضحايا المدنيين في ضربتها المضادة في غزة. واضعًا في اعتباره أخطاء الولايات المتحدة في العراق وأفغانستان، حذر الرئيس الأمريكي من خطر خلق وحش أكبر في المنطقة على المدى البعيد من خلال الردود العسكرية المبررة ضد حماس وأن يصوروا أنفسهم في نظر الرأي العالمي العام كدولة استعمارية مجردة من الرحمة تجاه مصير الفلسطينيين.

"يبدو أن الرئيس بايدن يرى بوضوح أكبر من حلفائه الأوروبيين أن الصراع الذي يبدو محصورًا في غزة يمكن أن يصبح إن لم يكن قد أصبح بالفعل عاملًا كبيرًا آخر للمواجهة المتزايدة بين عالم الجنوب والديمقراطيات الغربية. سواء أحببنا ذلك أم لا، فإن الدعم الغربي لإسرائيل في عمليتها العسكرية في غزة والصمت إلى حد كبير عن آلاف الضحايا المدنيين يُعد بالنسبة للعديد من دول عالم الجنوب مثالًا آخر على 'المعايير المزدوجة' للغرب، الذي يصف موت المدنيين وتدمير المنازل والمستشفيات على يد روسيا في أوكرانيا بأنها جرائم حرب، بينما يبرر الأمر نفسه في غزة بالإشارة إلى حق إسرائيل في الدفاع عن النفس.

بالطبع، هناك فرق قانوني دولي جوهري بين تعرض بلد مثل أوكرانيا لهجوم بلا مبرر، ودفاع بلد مثل إسرائيل عن نفسه ضد المعتدي ومحاولة هزيمته. لكن، هل يعتقد أحد حقًا في ألمانيا أن هذا الفرق المهم سياسيًا وقانونيًا يمكن أن يطغى على صور آلاف الأطفال والعائلات والأبرياء الآخرين الذين قتلوا في المنازل المدمرة في غزة؟

كما نعلم، لا تُدار السياسة العالمية في محكمة، وليس القانونيون من يقررون في نهاية المطاف ما يمكن للناس تحمله أو عدم تحمله. في نهاية المطاف، لا يتعلق الأمر في الحرب بالشرعية فقط. إحدى الدروس المستفادة من أحداث 11 سبتمبر 2001 هي أنه

لا ينبغي السماح للقانونيين بتحديد الحدود التي تحكم سلوك الدولة في النزاعات المسلحة.

© dpa

يجب على إسرائيل أن توجه تصرفاتها ليس فقط بناءً على ما يقوله محاموها، ولكن أيضًا بناءً على ما يخبرها به العقل السليم حول تأثير سلوكها على الأشخاص الأبرياء.

في العالم العربي وما وراءه، يُنظر إلى هذه الحجة الغربية على أنها نقص في التعاطف وتعامل بدم بارد مع الضحايا الفلسطينيين. أصبح الصراع في قطاع غزة بالفعل نقطة فصل جديدة بين الديمقراطيات الغربية وعالم الجنوب. تزداد الفجوة السياسية باطراد بين الدول الثرية في الشمال والغرب من العالم وعالم الجنوب. يتسم هذا العقد بعدم الاستقرار المتزايد وعدم الأمان وكذلك الحروب الأخرى مثل تلك التي في منطقة الانقلابات في غرب إفريقيا. إنها الأنظمة الاستبدادية والديكتاتوريات في العالم التي تستفيد من هذا الوضع.

لقد تلقت هيمنة الغرب السابقة في العالم منافسة منذ مدة ليست بالقصيرة ولم تعد مقبولة كصياغة في عالم الجنوب. سيحترم الغرب في عالم المستقبل فقط إذا نظر إلى المصالح المشروعة للدول القوية الجديدة في الشرق الأوسط والأقصى وعالم الجنوب على أنها متساوية وأسس تحالفات جديدة أيضًا على أساس تكافؤ قيمة المعاناة والحياة للناس وظروفهم المعيشية."

"فقط مثل هذا التصميم الجديد للسياسة يمكن أن يخلق الظروف المناسبة للسلام في المنطقة المتأثرة وللسلام الداخلي لدينا. كان تقليل معاناة المدنيين في كل نزاع مسلح إلى الحد الضروري جزءًا من قواعد الحرب البرية في لاهاي في نهاية القرن التاسع عشر كعنصر من عناصر القانون الدولي الإنساني. يتم مراقبة التعاطف الجماعي للغرب مع كل معاناة المدنيين بعناية شديدة ليس فقط في العالم العربي. من مصلحة إسرائيل أيضًا أن تجعل فرقًا واضحًا بين حماس والسكان المدنيين في غزة.

جو بايدن، الذي أيضا لديه إمكانيات محدودة، يحاول مواجهة اتجاه الانجراف العالمي بين الغرب وعالم الجنوب. لذا فهو ملتزم بإيجاد شكل مستقر لتبادل الآراء حول القضايا العالمية مع الصين على الأقل، والاتفاق على آليات لمنع المواجهة العسكرية المباشرة بين هاتين القوتين العظميين. ولذلك أيضًا رسالته المزدوجة إلى إسرائيل: نحن نقف إلى جانب أمنكم، لكننا نتوقع خطوات للحد من التصعيد والبحث عن مستقبل سياسي لغزة.

يمكن لأوروبا المتناحرة والعاجزة عن التصرف أن تكون سعيدة لأن هناك في البيت الأبيض 'رجل أبيض عجوز' لكنه بالمقابل، وعلى عكس الكثيرين من الأصغر سنًا، يبدو أنه يحتفظ بكل حواسه معًا.

الخيار الأفضل الآن هو أن تضغط الولايات المتحدة، ونأمل أيضًا حلفاؤها الأوروبيون، على إسرائيل لوقف القصف والالتزام بالسماح للمنظمات الإنسانية بالوصول إلى قطاع غزة وتحديد شروط لوقف إطلاق النار. يجب على حماس والفلسطينيين المسلحين بالمقابل أن يوقفوا إطلاق الصواريخ من قطاع غزة ويطلقوا سراح الرهائن.

إذا لم يتحقق ذلك، فإن عدد الضحايا الأبرياء قد يصبح كبيرًا لدرجة أن الأبطال الإسرائيليين قد يختفون تحت جبل الضحايا الأبرياء. ومع كل يوم يزداد خطر اتساع نطاق الحرب أولاً إلى الضفة الغربية ثم إلى لبنان وسوريا وإيران. ستكون فظائع هذه الحرب تتجاوز ما نشهده حاليًا في أوكرانيا.

الرئيس الأمريكي يجرؤ على ما يتم السخرية منه واحتقاره في بلادنا في الوقت الحالي: لديه الشجاعة للدبلوماسية. وزير خارجيته يسافر تقريبًا يوميًا عبر المنطقة، وتواجد في الصين، عدد من كبار السياسيين الأمريكيين في شهر واحد، بما في ذلك رئيس السي آي ايه أكثر مما كان من جميع دول أوروبا في عام. يعرف بايدن أن المهمة الأكثر إلحاحًا هي كسب الوقت لهدنة إنسانية في غزة ولهذه الدبلوماسية نفسها. سيكون من المصلحة أن يدعمه الأوروبيون معا في ذلك.

© dpa

إذا نجح ذلك، فإننا نواجه المهمة الأصعب التي لا تزال قائمة، حيث تمثل حماس وحلفاؤها للأسف، بجانب أمور أخرى، فكرة – فكرة الموت. الموت لجميع اليهود والموت

المزعوم كشهداء لكل من يشارك فيها. ولكن، من يريد هزيمة فكرة يحتاج قبل كل شيء إلى فكرة أفضل.

فكرة للحياة: لليهود والفلسطينيين في دولهم الديمقراطية والمستقلة. كنا في طريقنا لتحقيق هذا الحل مع رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين - في ذلك الوقت قتل إسرائيلي متطرف ليس فقط رئيس الوزراء الخاص به ولكن أيضًا عملية السلام. اليوم، كنا على وشك توقيع الاتفاق الإسرائيلي السعودي، الذي قال عنه جو بايدن: 'هناك شيء فيه للفلسطينيين'، وهذه المرة أطلقت منظمة فلسطينية متطرفة النار على هذه الفرصة الصغيرة للتحسين. هذا يظهر المأساة الكبرى: المتطرفون على كلا الجانبين يحتاجون إلى الآخر كعدو، فالسلام، أو حتى التقارب، يجعلهم وجودهم غير ذات قيمة.

الآن يكمن المفتاح في حل قضية الرهائن تدريجيًا مع تحسين الوضع الإنساني للسكان المدنيين في غزة. سيتعين على الكثيرين تحمل المسؤولية عن ذلك، خاصةً الجيران العرب لإسرائيل، الذين يجب أن يضمنوا أمن إسرائيل مع الولايات المتحدة وأوروبا ومحاربة المتطرفين العنيفين. قد يبدو هذا وكأنه حلم ساذج في ضوء الواقع في الشرق الأوسط. لكن ربما كان هذا هو الشعور عندما دعا رجال شجعان مثل الفرنسي شومان والإيطالي دي جاسبري الألمان بالذات، بعد سنوات قليلة من الدمار والإبادة الجماعية في أوروبا، لبناء أوروبا المشتركة. بعد مدة أقل من مدة حياة إنسان، وصلنا من أوشفيتز إلى ستراسبورغ وبروكسل. هذا يظهر ما يمكن تحقيقه عندما يريد الناس حقًا إحداث تغيير.

__Anmerkung__: Der Originaltext stammt von Sigmar Gabriel und wurde auf thepioneer.de veröffentlicht. Der Text wurde von Ahmadd El-Mahgary aus dem Deutschen ins Arabische übersetzt.